أثر الأسبوعية Atar
العدد (5)، الخميس، 9 نوفمبر 2023م

تَكايَا شَمْبَات:
المعنى المشرق للحياة

حاتم الكناني ـ ملاذ عماد

إنّهم يدافعون عن وجودهم في المكان، الذي حوَّله طرَفا حرب الخرطوم إلى ساحة حربية، دون أي اكتراث بالمدنيين الذين يقطنونه، يدافعون عن المكان نفسه الذي يمثل هويتهم المشتركة التي تكونت برائحة عرق أجدادهم وحَبّوباتهم وأمهاتهم وآبائهم. يدافعون عن الذكريات بالبقاء في المكان نفسه، والحنين إليه وهم فيه، يدافعون بعزة عن قيم الصداقة والأخوة والجيرة والعائلة، ولا يحملون في ذلك سلاحاً سوى بقائهم رغم الحرب التي تدور في شوارع طفولاتهم ومراتع صباهم؛ ويستدعون مواريثهم في التكافل في مقابل عته الحرب ومن يقودونها. في «شمبات الحِلَّة»، ما زال السكان يقيمون ضاربين بالحرب عرض الحائط، يواصلون يومياتهم العادية في قريتهم التي نشأت قبل ما يزيد عن الخمسة قرون، ثم تحولت رويداً رويداً مع الدولة الحديثة، وتَشكُّل العاصمة، إلى أحد أعرق أحياء مدينة بحري، على الضفة الشرقية من نهر النيل، قبالة أم درمان.

ترجع نشأة «شَمْبَات الحِلّة» إلى ما قبل العام 1504م، وكانت تقطنها عديد من القبائل التي تصاهرت وانصهرت في بوتقة واحدة. وهي تشكِّل مع تُوتِي والفِتيحاب وبُرِّي والجِريفات والحَلْفاية وأم دُوم والكَلَاكْلات أصل الخرطوم. أطلق عليها اسمه «شمبات» بعد عام 1740م، وقبلها كانت تُسمّى «الحِليلة شُوحَطَت»، وكانت تتكون من مجموعة الحَلَّال والفُرقان؛ ما يربو على العشرين حِلَّة وفريقاً. وكان أهلها يمتهنون الزراعة بالسواقي على ضفة النيل وجروفه والحليلة شوحطت حيث تقوم شمبات القديمة حالياً، أما منطقة امتداد شمبات الحالية ومنطقة الصافية فقد كانت تُستغل للزراعة المطرية. وبظهور الدعوة المهدية شارك العديد من أهل البلدة فيها، وتقلد اثنان من أبنائها الإمارة الأمير بابكر محمد الأمين والأمير عبد القادر كروري.

طوال ما يقارب الأشهر السبعة من مواجهة القصف العشوائي وغير المسؤول، واحتلال المدينة من قِبل الجنود، وانعدام سبل العيش؛ استلهم سكان «شمبات الحلة» فكرة

«التَّكِيَّة» ذات الأبعاد العرفانية والصوفية والاجتماعية، لمواجهة انقطاع سبيل الحياة، وللمحافظة على الأنفس من شّر الجوع والفاقة، لكلّ مَن قرّر ألا يبارح بيته، ممارساً حقّه الآدمي في الاختيار؛ رغم أنف الجنود وقادتهم، ورغم أنف المدافع والطائرات الحربية، ورغم أنف الفظائع والجثث والخراب، ينتظرون ميلاد الوردة في الخرائب، كمن ينتظر أمل الخلاص. لم يزل الشباب يمارسون كرة القدم في الميادين عصراً، لا يُلقون بالاً للقذائف، والأطفال يمضون إلى فصولٍ تطوَّعَ بعضُ المعلمين بالتدريس فيها، وما زالت خطب الجمعة تُلقى في المساجد، ويتضرّع المصلون لإيقاف الحرب وصلاح البلاد.

«بدأت فكرة التَّكِيَّة قبل الحرب في شهر رمضان بمسجد المَحَس، فمجتمع شمبات بطبيعته تكافلي، لكن الفكرة أصبحت ضرورة بعد الحرب، وزاد عدد التكايا ليبلغ (18) تكية»، يقول أمين عكّام، وهو موسيقي وأحد سكان شمبات، وما زال يقيم فيها، ثم يضيف: «نظّم أبناء شمبات أنفسهم لدعم التكايا بمواد تموينية مثل العدس والفول والفاصوليا، وكل ما هو متاح. جميع الأسر صار مطبخها في التكايا سواء في المسجد القريب أم الشوارع، وبعض الأسر في البداية كانت متحرجة لكن مع تفاقم الوضع الاقتصادي وعدم توفر المواد الغذائية، أصبحت التكايا مصدر الغذاء الأساسي لكل الأسر».

«نحاول ممارسة الحياة لأنها أقوى من الحرب، ولو ركنّا للإحباط لأصبنا بالجنون. لذا نحتاج لممارسة حياتنا العادية بأي شكل حتى تزول الغمة»، يضيف عكام.

من تلك التكايا: تكية التجانية، تكية المَحَس، تكية شيخ زين العابدين، تكية العبدلاب، تكية عز الدين حاج إبراهيم، تكية الحضراب، تكية الفكي البشير، تكية حامد عبد الرحمن، تكية فريق العرب، تكية شمبات الغربية، تكية الأزهري حسب الرسول، تكية فريق عجيب، تكية صرص، وتوسعت لتصل إلى شمبات الأراضي: تكية شمبات الأراضي مربع 2، تكية شمبات الأراضي مربع 4، تكية شمبات الأراضي مربع 12، تكية شمبات الأراضي مربع 15.

ويقول عبد الغفار عمر، إن الفكرة بدأها أحد أبناء شمبات، وهو شمس الدين محمد بابكر أونسة، وتوسعت بعد ذلك بمجهود شباب شمبات ومن أبرزهم: حاج أحمد بسيسة، بكري عبد الرحيم، أسامة عبد الكافي، الهاشمي عبد الله الهاشمي، محمد الخاتم عبد الحاكم، عبد الرحمن ود البني، عبد الرحمن عبد الله، محمود حمزة، عبد الله صلاح، وعثمان إبراهيم، وغيرهم من خيرة شباب المنطقة.

ويأتي الدعم المالي للتكايا عن طريق أبناء شمبات داخل السودان وخارجه، ومبادرة بنك الطعام التي أطلقتها «مؤسسة النيمة الثقافية والاجتماعية» بشمبات، أما بالنسبة للأسواق التي تأتي منها المواد الغذائية، فيقول عضو مبادرة بنك الطعام، عبد الغفار عمر، إنها كانت تأتي من سوق دردوق، شمالي بحري، عابرة السامراب شرق، فالحلفايا حتى تصل إلى شمبات وجنوب بحري، لكن زادت نقاط التفتيش قبضتها الأمنية في الشهرين الأخيرين، مما دفعهم لاستجلاب المواد الغذائية من أسواق أخرى، مثل سوق الحاج يوسف الوحدة أو سوق 24، بعد أخذ الأذونات من القوات في المنطقة من الجهتين، كما

أن من يقومون باستجلاب المواد لا بد أن يكونوا معروفين لدى أفراد نقاط التفتيش، ولا يُسمح لأكثر من عربتين بجلب المواد، وإلا ستكون عرضة للمصادرة. يقول عبد الغفار: «دون الإخطار أو أخذ الأذونات سيتعرض من يجلب المواد لخطر الاعتقال والمساءلة والتعذيب، لذا نحرص على أخذ الأذونات من طرفي الحرب، وهذا طبيعي في مثل هذه الأوضاع».

تعتمد التكايا في الوجبات التي تقدمها على الفول، والعدس، والفاصوليا، والأرز، لكن هذه الأصناف نفسها بدأت تنعدم، لأن المخازن بأسواق الحاج يوسف وشرق النيل بدأت تنفد منها البضائع، وأغلبها مصدره المنطقة الصناعية ببحري، مما ينبئ بوضع كارثي إذا لم تُفتح المسارات الإنسانية من خارج الولاية، كما يشير عبد الغفار.

وردت «التَّكِيَّة» في قاموس اللهجة العامية في السودان لعون الشريف قاسم: هي ملجأ للفقراء من التكاة. ما يتكئ عليه الفقير. قال الشايقي: خلواتكم دايماً تكية. وقال العبدلابي في الشيخ عجيب: واقِفْ وَقْفُو وتَكِيتُّو تدور.
أما أصل «التكيّة»، فيعود إلى العصر العثماني سواء في الأناضول أم في الولايات التابعة للدولة العثمانية، وتعد من العمائر الدينية المهمة، وجمعها «تكايا»، وأنشئت خاصة لإقامة المنقطعين للعبادة من المتصوفة ومساعدة عابري السبيل. وتُعتبر التكية من المنشآت الدينية التي حلَّت محل «الخانقاوات» المملوكية في العصر العثماني.
وفي العصر الحديث اتخذت التكية معنى المأوى، وهو المكان الذي يقيم فيه الفقراء أو المسافرون أو حتى لرعاية المحتضرين الذين ينتظرون وفاتهم وعادة ما يتم الإنفاق عليه من قبل جهات أو منظمات دينية.
أما في السودان فأقدم التكايا منسوبة إلى الملك بادي أبو دقن (1643 – 1678م) في سلطنة سنار (1505- 1821م)، وكانت تكية كبيرة جداً وفيها قدح كبير، يأكل منه الناس بالمئات في الوجبة الواحدة، وهناك من ينسبون دخول التكية إلى السودان إلى العرب الداخلين إليه من شمال أفريقيا، في زمان أحمد المعقور، مؤسس سلطنة دارفور (1603 – 1874)، (1898-1916). وأشهر التكايا في العصر الحديث في السودان هي تكية المهدي وهي سابقة لتكية الميرغني.

الماء والكهرباء والدواء والتعليم

يقول أمين عكام إنهم اضطروا إلى فتح آبار قديمة تم الاستغناء عنها، إضافة إلى حفر آبار جديدة للحصول على ماء الغسيل والاستحمام، أما مياه الشرب فتُجلب من النيل مباشرة عن طريق الخيرين الذين ينقلون الماء عبر عربات النقل (الدفّارات) الكبيرة. وبالنسبة للأدوية يستعين السكان بالصيدلية الخيرية بمؤسسة النيمة والتي يحاول العاملون فيها الحصول على الأدوية بوسائلهم الخاصة، لكن تواجههم مشكلة علاج الحالات الطارئة مثل الكسور والجروح، نتيجة للقصف، مع صعوبة في وسائل التنقّل وغلاء الوقود وإغلاق المستشفيات.

أنشأ عدد من أبناء «شَمْبَات الحلة» فصلاً ليواصل الأطفال تعليمهم، في مواد اللغة الإنجليزية واللغة العربية، والرياضيات، وقسموا الأطفال إلى ثلاث مجموعات: من الصف الأول حتى الثالث أساس؛ ومن الصف الرابع حتى السادس أساس؛ ثم المرحلة المتوسطة. وتبرع بغرفة الفصل أحد أبناء الحي.

أمين عكام الذي تولى تدريس اللغة الإنجليزية في أحد الفصول يقول: «ليست المواد الأكاديمية فقط هي ما يهمنا، بل تقديم الدعم النفسي للأطفال في وضع استثنائي ظلوا يعانون منه منذ بداية الحرب»، ويضيف: «بالنسبة لي أيضاً يتيح لي انخراطي في تعليم الأطفال الخروج من أجواء الحرب، والإحساس بالأمل».

وتكوّن فريق من أبناء الحي لمعالجة أعطال الكهرباء التي تحدث بسبب القصف المدفعي، ليس في «شمبات الحلة» فقط بل في جميع المناطق التي حولها. ومع كل قصف مدفعي يخرج الفريق لمعالجة الأعطال، ولكل خروج قصة عصيبة خاصة عندما يلتقون بعناصر طرفي الحرب، لكنهم رغم ذلك لم يتوقفوا وما زالوا يعملون على فتح الآبار وتوفير المياه من النهر عن طريق الطلمبات.

شمس الدين الحاج الذي اضطر لنقل أسرته من شمبات إلى شمال أم درمان، يقول إنّ الأهالي يشكّلون لوحة جميلة من التعاضد وحراسة البيوت الفارغة التي فارقها أهلها، وأيضاً يرسلون وفوداً لتعزية المتوفين من أبناء شمبات الذين رحلوا منها إلى أم درمان رغم صعوبة الحركة داخل العاصمة.

Atar
السودان ومحيطه

مجلة تصدر أسبوعياً عن
مركز **سودان فاكتس** للصحافة

FACTSD
FACTS CENTER FOR JOURNALISM

نعمل على السودان،
مــن كــل مــكـان

لاستلام نسخة (pdf) من المجلة أسبوعياً الرجاء مراسلتنا مرة واحدة على:
atar@sudanfacts.org

للانضمام إلى شبكة مراسلي أتَـر في السودان الرجاء مراسلتنا على:
correspondent@sudanfacts.org

@atarnetwork